eISSN 2600-8408
http://journals.iium.edu.my/al-fiqh
Pp. 51 - 61

Copyright (C) 2020
IIUM Press
International Islamic University Malaysia

التنمية البيئية ومساراتها الإنسانية في القرآن الكريم

محمد فتحي محمد العتربي[١]، حسن سليمان[٢]، عبد الباري بن أوانج[٣]، السيد مكي البشر علي حسن[٤]

ملخص البحث

تعتمد الرؤية المقاصدية على التعليل والمصلحة ومآلات الأفعال، وفقه العمران وبيان الأحكام المرتبطة به أولية ذات أهمية في تحقيق العمران وإظهار أثره ودوره في تنمية البيئة ومسارات تلك التنمية في القرآن، وذلك يعتمد على الإنسان بما لديه من قدرات وإمكانات إبداعية أو قدرات سلبية تدميرية؛ ومن هنا تأتي أهمية هذه الورقة. أما إشكاليتها؛ فهي تجيب عن مجموعة من الأسئلة أبرزها: ما معنى العمران؟، وما دوره في التنمية البيئية؟، ثمَّ ما أسس العمران وما مساراته الإنسانية في القرآن الكريم؟، وأخيرا: كيف ترسم المسارات القر آنية حدود التنمية وبيان أشكالها بما يخدم الإنسان والبنيان معا؟ وأما منهج البحث؛ فقد اتَّبع الباحثون المنهج الاستقرائي الجزئي والمنهج التحليلي الوصفي. هذا ويتكوَّن البحث من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وقائمة بأبرز المصادر والمراجع. فالمقدمة؛ فهي حول دوافع البحث وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، وإشكالية البحث، ومنهجه، والخطة المقترحة. وتضمَّن المبحث الأول مصطلحات البحث، والمبحث الثاني التنمية البيئية وعلاقتها بالإنسان، أما المبحث الثالث؛ فتحدَّث عن أسس التنمية ومساراتها في ضوء القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: التنمية، البيئة، العمران، المصلحة، المسارات، الإنسانية، القرآن الكريم.

Environmental Development and Its Human Pathways in the Holy Quran

Abstract

The Maqāsid vision is founded on the ratiocination (at-Taʿlīl), the interest (al-Maṣlaḥah) and the consequence of actions (al-Maʾālāt); and the jurisprudence of urbanism with the explanation of its related legal rulings is a priority that is important in achieving urbanization and showing its impact and its role in developing the environment in the light of the purposes of Sharīʿah, which depends on the human being with its creative abilities and capabilities, hence there comes the importance of this paper. For the research problem: The paper answers a set of questions, most notably: What is the meaning of jurisprudence of urbanism? What is its role in environmental development? What are the foundations of urbanism and what are its human pathways in the Noble Qur'an? How do the purposes of Shariah draw a legislative structure that serves both people and structures? And on the research methodology: the researcher has followed the inductive (partial) analytical descriptive approach. This research consists of an introduction, a preface, two subtopics, a conclusion, and a list of the most prominent sources and references, which as follows: the introduction: on the importance of the topic, the reason for its choice, literature reviews, the research problem, its methodology and the proposed plan. The first subtopic of the research is for the terminology's definitions, and the second subtopic is about environmental development and its relationship with human beings, while the third one concerns the foundations of development in the light of the Holy Quran.

Keywords: Development, Environment, Urbanization, Public Interest, Pathways, Humanity, al-Quran.

[١] أستاذ مشارك، كلية الشريعة والقانون، جامعة السلطان عبد الحليم معظم شاه الإسلامية العالمية، ماليزيا. fathyeletrebi@unishams.edu.my
[٢] أستاذ مساعد، قسم الفقه وأصول الفقه، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا. abuxzubair@iium.edu.my
[٣] أستاذ مشارك، قسم الفقه وأصول الفقه، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا. abdbari@iium.edu.my
[٤] أستاذ، قسم اللغة الحديثة، كلية اللغات والاتصالات، جامعة السلطان إدريس للتربية، ماليزيا. elsayed@fbk.upsi.edu.my

المحتوى

المقدمة	51
المبحث الأول: مصطلحات البحث	52
المطلب الأول: مصطلح التنمية	52
المطلب الثاني: مصطلح البيئة	53
المبحث الثاني: التنمية البيئية وعلاقتها بالإنسان	53
المطلب الأول: ضرورة مراجعة فلسفة التعليم	53
المطلب الثاني: تطوير المناهج التعليمية	54
المبحث الثالث: أسس التنمية ومساراتها في القرآن الكريم	54
المطلب الأول: التهيئة العمرانية للإنسان في القرآن	55
المطلب الثاني: المسار الإيماني الرشيد	55
المطلب الثالث: المسار الطاغي العنيد	57
الخاتمة	60
التوصيات	60
المراجع	61

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد؛ فتعتمد الرؤية المقاصدية على التعليل والمصلحة ومآلات الأفعال، وإذا نظرنا إلى أهمية العمران ودوره في تنمية البيئة في ضوء المقاصد الشريعة، نجد أن أبرز المقاصد وأعلى المصالح بعد التوحيد الخالص لله -تعالى- هو العمران

الذي تعتمد مفرداته على البيئة المحيطة بالإنسان من زاوية الاهتمام والتنمية المستدامة بالصيانة والرعاية والمحافظة؛ إذ هي وسيلة للمحافظة على النفس ككلية من كليات الشريعة، ومقصد من مقاصدها الضرورية، كما تعتمد على الإنسان بما لديه من قدرات وإمكانات إبداعية، ومن هنا تأتي أهمية الورقة، ونسأل الله التوفيق والسداد.

أسباب اختيار الموضوع:

أ. بيان دور المقاصد الشرعية العليا، كالتوحيد، والتزكية، والعمران في تحقيق التنمية البيئية.

ب. بيان أثر الفقه في التهيئة العمرانية والتنموية.

ج. تحديد الخطاب والوعي الدينيين الذين يعتمدان على الفهم للواقع ومشكلاته ومآلاته، والنص الشرعي وإطلاقاته وغاياته.

د. وضع ملامح اجتهادية لتطوير الفهم والتنزيل لنصوص الوحي الأمين، بما يقوي "الفهم البياني" عند تفسير النصوص وتنزيلها على الوقائع والنوازل، وهو ما يسميه البعض "التأصيل الاستدلالي" وفق قواعد التنزيل المحكم، و"الشهود الاستخلافي" القائم بواجب عمارة الدنيا استعدادا لجزاء الآخرة، و"التلازم المقاصدي" لبينات النصوص الشرعية وأولها القرآن الكريم.

من الدراسات السابقة في الموضوع:

أ. مقالة بعنوان "من القرآن إلى العمران"، للشاهد البوشيخي، (١٤٣٤هـ)، وفيها حديث عن حركية الإنسان بالعمران.

ب. الحضارة الإسلامية وفقه العمران، لخالد عزب، (٢٠١٢م). تحدَّث المؤلف في الفصل الأول عن فقه العمران، حيث يرى فيه أن فقه العمران ارتبط بإطارين حاكمين له من الناحية الفكرية، الإطار الأول: هو السياسة الشرعية، وهي السياسة التي يتبعها الحاكم في المجال العمراني، والإطار الثاني: هو فقه العمارة، والمقصود به مجموعة القواعد التي ترتبت على حركية العمران نتيجة للاحتكاك بين الأفراد ورغبتهم في العمارة. وهذا هو المنطلق الذي يرى الباحثون ارتباطه مع هذه الدراسة، وذلك من جهة المنطلقات الفكرية العمرانية التي حكاها القرآن عن الأمم السابقة، وأثَّرت بالسلب أو الإيجاب في مآل هذه المسارات العمرانية.

ج. أعمال الندوة الدولية "دور القرآن الكريم في بناء الإنسان والعمران"، بمركز الدراسات القرآنية بالرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب العربي، بالتعاون مع مختبر الدراسات الشرعية والبناء الحضاري بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل القنيطرة ومجلة حراء التركية (٢٠١٣م). ومن أوراقها ذات الصلة: "من التزكية إلى العمران"، لزيد أبي شعراء، أستاذ التعليم العالي، جامعة ابن طفيل، القنيطرة؛ و"ضوابط العمران والبنيان: رؤية في ضوء القرآن الكريم"، ليحيى وزيري، أستاذ الحضارة الإسلامية والعمران، جامعة القاهرة، مصر.

إشكالية البحث: تجيب الورقة عن مجموعة من الأسئلة المهمة:

أ. ما معنى التنمية؟ وما دورها في صيانة الإنسان والبنيان؟

ب. ما دور الرؤية المقاصدية في تحقيق التنمية البيئية؟

ج. ما أسس التنمية في القرآن الكريم؟

د. كيف ترسم المقاصد هيكلا تشريعيا يخدم الإنسان والبنيان معا؟

منهج البحث: المنهج الاستقرائي الجزئي، إضافة إلى المنهج التحليلي الوصفي.

المبحث الأول: مصطلحات البحث

المطلب الأول: مصطلح التنمية

التنمية لغة: مصدر نمى ينمو تنمية ونماء (Ibn Al-Manẓūr, 2003, 12/332)، فالتنمية: زيادة نافعة مستدامة تعني البناء والعمران، وهو –أي: العمران– ما نركز عليه في البحث.

أما التنمية اصطلاحا؛ "فهي كل الأعمال التي تلبّي احتياجات الإنسان دون تضحية أو إضرار بمقدرات واحتياجات الأجيال القادمة" (Al-Ghāmidī, 2009, 10).

وتقوم التنمية البيئية على تفعيل الموارد الموجودة عبر قدرات وإبداعات بشرية؛ تحقيقا لإنجاز علمي وتكنولوجي، وتحقيقا لعدة أهداف، أهمها: تلبية الضروريات والاحتياجات

والتحسينيات البشرية، ومن أجل تجديد دائم لنوعية الحياة البشرية، ويقاس مستوى النهوض التنموي في أي مجتمع عبر ما تحدثه التنمية من تغييرات في بنيته الاجتماعية والاقتصادية على صعيد الأفراد والجماعات. ومن هنا، يمكن تعريف التنمية بأنها: عملية التغيير الهيكلي في إطاره الاقتصادي والاجتماعي، من خلال تطبيق شريعة الإسلام والتمسك بعقيدته، وتوظيف طاقات الأفراد لعمارة الأرض إنسانا وبنيانا في المعاش والمعاد (Yusrī, 2001, 127).

المطلب الثاني: مصطلح البيئة

البيئة لغةً: الهيئة والمنزل والمستقر والحال الراهن لمحيط الإنسان، قال ابن منظور في "لسان العرب" مادة "بَوَأَ": باء إلى الشيء يبوء بوءاً: رجع، وتبوّأت منزلاً، أي: نزلته، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ﴾ [الحشر :٩]، وإنه لحسن البيئة أي: هيئة التبوء، والبيئة والباءة والمباءة: المنزل (Ibn Manẓūr, 2003, 1/42). واستعمالات العرب المختلفة للجذر (بوأ) تدل على الاستقرار والتمكن، وما يرغب المرء بالرجوع إليه لقيامه بحاجته. واستعملت البيئة بمعنى الحال الراهن للمكان المحيط بالإنسان، وهو المعنى المستعمل اليوم. يقول السحيباني: "ويمكن أن يكون هناك علاقة بين هذه المعاني وبين البيئة في العرف الشائع، أو حتى في الاصطلاح العلمي؛ ذلك أن المقصود بالبيئة عند أكثر المتحدثين بها المكان أو الحيز المحيط بالإنسان، وربما عنوا بها الجوانب المؤثرة في الإنسان، من محسوسات وغيرها، وحالة الإنسان معها" (Al-Suhaybanī 2008,40-41). وذكر عمر القحطاني أن كلمة (البيئة) تطوَّرت كثيراً حتى أصبحت تطلق على حالات كثيرة تشمل ما يختص بالإنسان أو بالطبيعة (Al-Qaḥṭānī, 2008, 21-24).

أما البيئة اصطلاحا؛ فهي المحيط الذي يعيش فيه الإنسان وغيره من الأحياء، مما يأوي إليه وفيه يسكن (Ḥasan, 1996, 18-19). وقيل البيئة هي: الوسط الذي يعيش فيه الكائن الحي، ويؤثر فيه ويتأثر به.

ورجَّح السحيباني أنّ المعنى الأوفق للبيئة أنها: المكان الذي يعيش فيه الإنسان، بما يضم من مظاهر طبيعية خلقها الله سبحانه، يتأثر الإنسان بها ويؤثر فيها (Al-Suhaybanī, 2008, 773).

وتوسع د. إبراهيم بدران فقال: "أنواع البيئة التي تحيط بالإنسان أربعة: هي البيئة الحيوية أو الكونية، وهي من صنع الله، والبيئة التكنولوجية التي يصنعها الإنسان بما وهبه الله من قدرة، والبيئة المجتمعية، وهي تنتج عن المجتمع وما يعتريه من تغيرات، أما البيئة الداخلية للإنسان؛ فهي تنبع من النفس وما سواها، وتمثل فكره وسلوكه وتصرفه" (Badrān, 2000, 19).

ونخلص مما سبق إلى مدى العلاقة الوثيقة بين البيئة والإنسان، تلك العلاقة التفاعلية بين التأثير والتأثر، تفعيلا لموارد البيئة، وتشغيلا لمواهب الإنسان.

المبحث الثاني: التنمية البيئية وعلاقتها بالإنسان

العلاقة بين الإنسان والبيئة متلازمة طالما أن البيئة هي الإطار الذي يسكنه ويحصل منه على مقومات حياته، وقد تنامت العلاقة بين الإنسان والبيئة خلال العصور البشرية المختلفة بشكل عفوي وفطري، إلا أن التعامل العشوائي للإنسان المعاصر أدَّى إلى أضرار وأخطار سيما بعد الثورة الصناعية واختراع الآلة.

ولما كان الإنسان هو أداة التنمية بكل أبعادها ومستوياتها؛ كانت تنمية الإنسان بالتعليم مقصدا شرعيا وواقعيا، وهو ما يتَّضح من خلال المطلبين التاليين:

المطلب الأول: ضرورة مراجعة فلسفة التعليم

من الأهمية بمكان مراجعة فلسفة التعليم؛ وذلك باعتبارها المرجعية الأولى لبناء أهداف المؤسسات التربوية والتوجيهية للإنسان المعاصر، وهو ما يمكن تحقيقه من خلال الأمور التالية:

١. اعتبار المتعلم محور العملية التعليمية وليس المعلم؛ وذلك للانتقال بالتعليم من التلقين إلى التفعيل والتشغيل عبر

التفكير الإبداعي للمتعلمين، ومن ثَمَّ نقل عملية تحصيل المعرفة إلى القدرة على الحصول على المعرفة، وليس تلقين المعرفة وحفظها فقط.

٢. تطوير المناهج التعليمية وتضمينها متطلبات التنمية المستدامة، مع المرونة التي تمكن من الاستجابة الفورية للمتغيرات.

٣. تغيير النظام التعليمي عبر آلية جديدة في وسائله ومفرداته ومخرجاته، تضمن فاعلية المؤسسة التعليمية واستمرارية عطائها دون ملل أو خلل.

٤. اهتمام مؤسسات التعليم العالي بالتدريب والتشغيل للمتعلمين إلى جانب دورها في تخريج مخرجات ثقافية ملائمة للتأهيل الوظيفي؛ قصدا وتطبيقا لأهداف العملية التعليمية وغاياتها.

المطلب الثاني: تطوير المناهج التعليمية

والمقصود تطوير المناهج التعليمية بتزويدها بالمفاهيم التنموية، وهي تشتمل على الآتي:

١. الأهداف المعرفية: فلا تقتصر المعرفة على التلقين والاستظهار، بل على التحليل والابتكار.

تنمية المهارات الذاتية: بالتفكير الإبداعي والنقدي، وربط الجزئيات بالكليات في إطار متكامل، مع التفاعل مع الآخرين في شفافية ووضوح وتجرد عن كل عصبية أو عنصرية أو طائفية، مع ضمان المواكبة للتقنيات التكنولوجية الحديثة.

المبحث الثالث: أسس التنمية ومساراتها في القرآن الكريم

سجَّل الله تعالى لنا في القرآن الكريم سبل الهداية والرشاد، ومن تلك السبل سبل العمران، وتنمية المكان، وتصريف الأيام والأزمان تنمية وتحضرا، عبر مسارات الاستخلاف والائتمان والابتلاء التي خصَّ الله تعالى بها الإنسان دون سواه مما خلق.

ولا يكون ذلك كذلك إلا بتوحيد الأفعال، وتزكية الأركان وفق نظام محكم حدَّده الله تعالى للمؤمنين المصلحين، وإذا كانت التنمية فعلا إنسانيا في الأساس –كما أشرنا سلفا– ؛ فهي –ولا ريب– مكون إنساني تراكمي، يبغي العمارة في ظل قوانين الجزاء والابتلاء التي جعلها الله تعالى سنة ثابتة لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**﴾ [الأعراف: ١٧٠].

وفي هذا المبحث نلقي الضوء على تلك المسارات التي بيَّنها الكتاب المجيد في أمثاله وأحكامه؛ فكم في الأمثال من أحكام كما قال الشافعي –رحمه الله–: "ألا وإن في الأمثال لأحكاما"، لكنَّها لا تتعلَّق بالأشخاص –وإن جازت واقعا– بل بالأمم والحضارات. من هنا؛ نجد القرآن يشير إلى مسارين للتنمية: مسار طاغ عنيد، ومسار إيماني رشيد؛ الأول يتخذ الإنسان آلة وقائدا، والثاني يتخذ الإنسان محورا وسببا؛ وشتان بين المسارين في المبتدأ والمنتهى، وما ربك بظلام للعبيد!

إنَّ كل ما أنجزه الإنسان عبر حقبه المختلفة سمَّاه القرآن عمراناً، وقد تفاوتت إبداعات البشر فيه شكلا ومضمونا بحسب تفاوتهم فيما أوتوا من خبرة ودراية وعلم وقوة، فمنهم من كان أكثر إعماراً ،كما قال الله تعالى: ﴿**كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا**﴾ [الروم:٩]، وقد أشار القرآن إلى ذلك التفاوت والتنوع في غير موضع، قال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ**﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿**فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿**وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [النمل: ٢٣]، ومن ذلك قوله تعالى عن بعض الأمم أنها كانت: ﴿**أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا**﴾ [مريم: ٧٤]. والمتدبر المتعقل لتلك الآيات يدرك أنها ليست خاصة بالمؤمنين الطائعين فقط، حيث اعتبرت إنجازات غير المؤمنين عمراناً، يعني أن مفهوم العمران مفهوم محايد، كما بيَّنا أنه لا يشترط في تسمية الشيء عمرانا أن يكون سالما من المكدرات الفكرية والأخلاقية، وإن كان العمران بعد ذلك قابلاً لأن يُنْعَتَ بالصلاح أو بالفساد. على أن هذا العمران ما كان الإنسان لينجز منه شيئاً لولا أن

الله تعالى هيَّأ له أسبابه، وفتح له آفاقه ابتلاء واختبارا (Al-Būshīkhī, 2013, 19).

المطلب الأول: التهيئة العمرانية للإنسان في القرآن

هيَّأ الله تعالى للإنسان كلَّ ما يتوقَّف عليه مسار التنمية، من علم وقدرة ومادة وقوة، فمعطي الكمال لا يفقده، وصور هذه التهيئة متعددة، من أظهرها:

أولا: جعل الأرض قرارا واستقرارا مهيئة للمحافظة على العمران، وذلك بالسكون والاستقرار: ﴿**وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ**﴾ [النحل: ١٥]، وقال: ﴿**أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا**﴾ [النمل: ٦١]، ولولا ذلك ما استقرَّ على الأرض بنيان ولا عمران.

ثانيا: تذليل الأرض واحتواؤها على خيراتها المعينة للإنسان على تلك التنمية، قال تعالى: ﴿**وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ**﴾ [فصلت: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ**﴾ [الملك: ١٥].

ثالثا: تيسير الحركة وإيجاد الأدلة، فجعل سبحانه النجوم علامات يهتدي الإنسان بها في ظلمات البر والبحر، قال تعالى: ﴿**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ [النحل: ١٦]، وقال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾ [الأنعام: ٩٧].

رابعا: عوامل التسخير، قال تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ**﴾ [الجاثية: ١٣]، وقد سخَّر الله تعالى للإنسان وسائل النقل والحركة عبر مساحات واسعة، وذلك بأن سخَّر له الدوابَّ والأنعام، وما يتجدَّد ممَّا يبدعه ويصنعه الأنام، قال تعالى: ﴿**وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل: ٧-٨]، وقال: ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**﴾ [غافر: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا**﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وقال في بيان تكريمه بالتسخير له: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾ [الإسراء: ٧٠].

خامسا: تليين الحديد؛ ليكون للإنسان وسيلة في إنشاء العمارة وحمايتها، قال تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾ [الحديد: ٢٥].

سادسا: تعليم الله الإنسان وتهيئته لعملية التنمية، بما وضع فيه من ملكات ورغبات وذوق وتَوْقٍ نحو البقاء وحب للحياة، مع فروق فردية تجعل الإنسان بحاجة إلى أخيه كي يعينه ويربط على يديه، كي يكون بين الناس تكامل وتوافق، قال تعالى: ﴿**وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا**﴾ [الزخرف:٣٢]، ولولا ذلك ما كان ثمة إمكان للعمران.

سابعا: إقامة السلطان صيانة للتنمية والعمران، فعملية التنظيم والتدبير وإقامة العدل الإلهي المحافظ على العمران ضرورة؛ من هنا، كان وجود السلطان لتدبير العمران واستدامته وصلاحه أمرا واجبا؛ فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

المطلب الثاني: المسار الإيماني الرشيد

العمران والتنمية لا يرتبطان بلون الإنسان أو دينه أو عرقه بل بصلاح الإنسان وإتقانه، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٥] أي: العاملون المتقنون المجيدون، فلم يكن العمران حكرا على المؤمنين فقط وإن كان بهم أجدر؛ لكن كان لأهل الكفر استحقاق بما قدموا من أسباب؛ قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ**﴾ [الزخرف:٣٣-٣٤]، قال ابن عاشور (1984, 26/203-206) تعقيباً على تفسير ابن عباس للآية: "ولولا أن يصير الناس كفاراً لخصصنا الكافرين بالمال والرفاهية، وتركنا المسلمين لما ادَّخرنا لهم في الآخرة، فيحسب ضعفاء العقول أن للكفر أثراً في حصول المال، جعله الله جزاء لمن

سماهم الكافرين، فيتبعوا دين الكفر لتخيلهم الملازمة بين سعادة العيش وبين الكفر".

وقد كان الناس في الأجيال الأولى أصحاب أوهام وأغلاط، يجعلون للمقارنة حكم التسبب؛ ولذلك كان للمؤمنين أيضاً عمرانهم؛ لينفصل العمران عن أن يكون ثمرة كفر أو إيمان، ومن ثم قال الله تعالى: ﴿**كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾ [الإسراء: ٢٠-٢١].

فقد سار العمران مسارين كما ذكر القرآن المجيد؛ مسارا راشداً، قام به العابدون كعمران داود وسليمان عليهما السلام وعمران ذي القرنين، ومسارا فاسدا قام به المعاندون المتكبرون، آلت به أسبابه إلى الدمار والبوار، كحضارة عاد وثمود وسبأ وأصحاب الجنة، على نحو ما نفصله في النموذجين التاليين:

النموذج الأول: عمران داود وسليمان عليهما السلام، قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا**﴾ [سبأ: ١٠]، وقال تعالى: ﴿**وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فقد أوتي سيدنا داود وابنه سيدنا سليمان -عليهما السلام- علما وحكما، أسَّسا به ملكا عظيما، قوامه العمل الدؤوب والشكر العريض المعين على استمرار الفضل، قال تعالى: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ [سبأ: ١٣]، وقد كان لسان حالهما -عليهما السلام- الحديث بفضل الله، وتذكر نعمته وفضله: ﴿**وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ**﴾ [النمل: ٤٢]. وقد مكَّنهما الله تعالى من الأسباب؛ أما داود فقد ألان الله له الحديد، فطوَّعه في صناعته دروعا وسابغات، قال تعالى: ﴿**وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**﴾ [سبأ: ١٠]، وأما سليمان فقد أسال الله له النحاس، فطوَّعه قدورا ومحاريب وتماثيل وجفان، قال الله تعالى: ﴿**وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ**﴾ [سبأ: ١٢]، قال ابن عاشور: "أرادوا بالعلم علم الحكمة الذي علَّمه الله داود وسليمان ورجال مملكتهم، ويشاركهم بعض أهل سبأ في بعضه، فقد كانوا أهل معرفة، أنشأوا بها حضارة مُبْهِتَةً". ومع هذا العلم أوتي سليمان من كلِّ أسباب العمران ومظاهره، قال -عزَّ وجلَّ- على لسانه: ﴿**وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [النمل: ١٦]، وكان مما أوتيه تقدُّم صناعي فائق، وإبداع بنائي باهر، اختلف به عما أوتي داود من حرفة صناعية يدوية.

ومما تقدَّم به سليمان في البنيان ما أثار ملكة سبأ عند دخولها الصرح: ﴿**قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ**﴾ [النمل: ٤٤]؛ فقد كانت أرضية من زجاج سميك تحته ماء تسبح فيه الأسماك، وهذا "من بديع الصناعة التي اختصَّت بها قصور سليمان في ذلك الزمان، لم تكن معروفة في اليمن على ما بلغته من حضارة وعظمة بناء".

ومما حكى القرآن أن سليمان -عليه السلام- انتقل من طور العمران المتميز بالإبداع والحسن والمتانة والوفرة والمحفوظ بالعدل والمزين بالرحمة إلى طور "ما بعد العمران"، فذكر تشوُّفه لأن يؤتى أقصى ما يمكن من السرعة في إنجاز المهمات؛ سعيا منه لتعبيد الأرض لخالقها، فقال ما حكاه القرآن: ﴿**قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**﴾ [النمل: ٣٨-٤٠].

يظهر مما تقدَّم أن النبيين -عليهما السلام- قد حقَّقا أبعاد الاستخلاف، والذي يدلّ على أنّ الحكم أو الحاكميّة من آثار الاستخلاف الإلهيّ للإنسان: أنّ الله سبحانه لما جعل داود خليفته في الأرض، رتّب على هذا الاستخلاف أمره بأن يحكم، ويقود الناس بالعدل والحقّ، فقال: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ**﴾ [ص: ٢٦]، ومن المعلوم أنّ المراد بـ (الخليفة) هنا وهناك في قصّة آدم واحد معنىً ومراداً، غير أنّها هناك ذات معنىً أعمّ، وهنا ذات معنىً أخصّ.

وتجدر الإشارة هنا إلى طبيعة الاستخلاف، فنقول: إن الاستخلاف غير التفويض، فقد صار الإنسان بما هو خليفة

الله في أرضه، خليفته في الحكم والقيادة. وهذه السيادة التي تفيدها هذه الآيات كما تختلف اختلافاً أساسياً عن الحقّ الإلهيّ الذي استغلَّه الطغاة والملوك والجبابرة قروناً من الزمن للتحكم والسيطرة على الآخرين، ووضعوا السيادة اسميّاً لله، لكي يحتكروها واقعيّاً، وينصبوا من أنفسهم خلفاء لله على الأرض، أو مفوضين من قبل الرب كما ادعى بعض أهل الكتاب؛ نقول: كما يختلف عن ذلك، يختلف أيضاً عن تفويض الحاكميّة من الله للمجتمع كلّه، بل هو خلافة ونيابة عن الله سبحانه، فما فوِّضت الخلافة للإنسان حتّى يتقلَّب فيها على أيّ نحو شاء، بل هو يحكم ويدير خلافةً ونيابةً عن الله سبحانه.

ولأجل ذلك؛ فما دام الله سبحانه هو مصدر السلطات ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**﴾ [يوسف: ٤٠]، وباعتبار الشريعة هي التعبير الموضوعيّ المحدّد عن الله؛ فقد بيَّنت الطريقة التي تُمارَس بها هذه السلطات عن طريق الشريعة الإلهيّة، وبهذا ترتفع الأمّة وهي تمارس السلطة إلى قمّة شعورها بالمسؤوليّة؛ لأنها تدرك بأنها تتصرف بوصفها خليفة لله في الأرض، فحتّى الأمّة ليست هي صاحبة السلطان، وإنّما هي المسؤولة أمام الله سبحانه عن حمل الأمانة وأدائها.

النموذج الثاني: عمران ذي القرنين، قال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا... حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً، قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ، قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ،آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ، فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**﴾ [الكهف: ٨٣-٩٧]. فقد زوَّد الله ذا القرنين بأسباب العمران ووسائل التصرف في الأرض، فقال: ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾ [الكهف: ٨٤]، فنجده قد وظَّفه في القضاء على الظلم حيثما كان، وذلك بمعاقبة الباغين تارة، أو بكفِّ أيديهم عن المستضعفين تارة أخرى، فجاب الأرض شرقاً وغرباً، لا ليستعبد شعوباً، ولا ليستغلَّ خيراتها بل ليملأ الأرض رحمة وعدلا؛ ولذلك كانت إنجازاته العمرانية إنجازات نافعة راشدة لا عبث فيها ولا غيّ.

وكان منها توظيفه ما أوتي من خبرة صناعية وقوة سلطانية في بناء سدٍّ منيع من حديد ونحاس، يقي قوما ضعفاء من عدوان يأجوج ومأجوج، ويمنع من إفسادهم في الأرض. فكان عمرانه هذا عمراناً وقائياً، حمى عمرانا قائماً من تخريب المخربين، وكان إلى جانب ذلك عمرانا جميلا، فقد جاء في بعض الروايات: أن السدَّ كان "كالبرد المحبر، طريقة سوداء وطريقة حمراء" (Al-Būshīkhī, 2013, 22).

المطلب الثالث: المسار الطاغي العنيد

اتَّخذ أصحاب هذا المسار العمراني رغم كفرهم مسار التشييد والبناء والزهو والخيلاء، كبرا وعنادا وتجبرا وطغيانا، جهلا بطبائع الأمور، وإخلالا بقوانين النظام؛ ذلك أن الإنسان محور التنمية والعمران وليس آلة، محكوم بقوانين وليس حاكما لها، مؤتمن على شروطها وليس مفوضا بإجرائها، مستخلف لإتمامها وليس مالكا لإرجائها، فإرادة الخالق فوق إرادة المخلوق، وتدبير الله فوق تفكير المخلوق، ولكي يعي الإنسان ذلك؛ بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيَّ عن بينة (Al-Būshīkhī, 2013, 23).

لقد بعث الأنبياء عامة ورسولنا الخاتم خاصة بنظام إلهي سنني، قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء: ٩]، والمقصود بـ {لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} شريعة الإسلام التي ذكرت في آية أُخرى بلفظة الشريعة؛ إذ قال الله سبحانه: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا**﴾ [الجاثية: ١٨]، كما أنّ لفظة "أقوم" التي هي صيغة التفضيل من "القائم" كناية عن صحة أحكام القرآن واستقامتها قاطبة، بحيث تنطبق مع الطبيعة، وتكون معها على وفاق كامل.

إنّ أحكام الإسلام توفّر للإنسان السعادة والحياة الكريمة، وتسوقه إلى الكمال في حين لا يصدق مثل هذا بالنسبة للنظم البشرية؛ فهي رغم كونها مفيدة للبشر من بعض النواحي، إلاّ أنّها مضرة به وبحياته من جهات أُخرى هامة وعديدة، وهذه حقيقة تؤكدها آيات أُخرى، مثل قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ [الأنعام: ١٦١]، حيث وصفت هذه الآية الإسلام أُصولاً وفروعاً بأنه دين قيم، ومقتفيًا ملّة إبراهيم.

وفي آية أُخرى عبّر القرآن عن أحكام الإسلام بلفظة "الشريعة"، إذ يقول تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الجاثية: ١٨]، وفي هذه الآية يتراءى للقارئ أمران:

١. أنّ النبي الأكرم أُرسل مع شريعة لتربية الناس وهدايتهم، وإيصالهم إلى ذرى الكمال، وحيث إنّ الشريعة تعني الطريقة، فلابد للطريقة من هدف يُقْصَد، ومقصود يُراد، وغاية تُطْلَب، وما ذاك إلاّ الكمال الإنساني المنشود، اللائق بالإنسان أكرم المخلوقات.
٢. أنّ اتّباع الأحكام غير الإلهية وغير المستمدة من الوحي الإلهي مهما كانت الأدمغة التي صنعتها ليس إلاّ اتباعا للهوى الموصل إلى الضلال والخسران.

وفي النماذج التالية وقوف على بعض نماذج هذا المسار العمراني، وبيان لمآله:

النموذج الأول: عمارة عاد قوم هود، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٤]، وقوله لهم أيضاً: ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ**﴾ [هود: ٥٢]، فقد كان عمرانهم يقوم على:

١. تشييد العلامات الهادية في الطرق ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً**﴾.
٢. تشييد الخزانات الكبيرة كي تجمع ماء الأمطار؛ ليشرب المسافرون، ويستفيد الحاضرون عند الجدب ﴿**وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ**﴾.
٣. تنمية الموارد البشرية والحيوانية والزراعية، قال تعالى عنهم: ﴿**أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**﴾.

ومع ذلك كله لم تشفع لهم عمارتهم بطغيانهم وتكبرهم وعنادهم لنبيهم لما: ﴿**قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [الشعراء: ١٣٦-١٣٩].

النموذج الثاني: عمران ثمود قوم صالح، يقول الله تعالى على لسان نبيهم مذكّرا لهم: ﴿**أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ**﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٩]، فقد كان قوم ثمود على علم ببناية القصور ونحت الجبال، حيث صنعوا بالسهول قصورا للصيف، ونحتوا الجبال بيوتا للشتاء، وصوَّر الله تعالى ذلك حاكيا عنهم: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ [الأعراف: ٧٤]، لكنَّهم لما أطاعوا المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون؛ أخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، فما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون.

النموذج الثالث: حضارة سبأ بمدينة مأرب، ومأرب معروفة بسدّ مأرب، وبكونها ذات جنان عن يمين وشمال، غناء المطالع، مثمرة المجامع، لا ترد باغيا، دائمة الثمار بوفرة المياه أو الأمطار، قال الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ**﴾ [سبأ: ١٥]. غير أنهم لما أعرضوا استحال أمرهم إلى بوار، قال تعالى: ﴿**فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ**﴾ [سبأ: ١٦].

النموذج الرابع: حضارة فرعون، حيث قامت بمصر الفرعونية حضارة ذات أوتاد وعماد وقصور وقبور شاهدة إلى يومنا هذا؛ لما تميز به فرعون من علم وقدرة وتجبر وسطوة، قال تعالى: ﴿**وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾ [الفجر: ١٠-١٤]، وكانت بمصر وما تزال من الجنات المعروشات والأنهار الجاريات ما حكى عنه القرآن وما أترف فيه القوم. لكن لما كان العمران غاية لا وسيلة، تكبرا وتفاخرا لا رحمة وتطامنًا، واستعلى به أربابه على الحق وعلى الخلق؛ استحق فاعلوه الاستبدال بل الهلاك والاستئصال، ودمرت آثارهم إلا ما يشهد بما كان، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿**فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ. وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**﴾ [الأعراف: ١٣٦-١٣٧].

فتأمَّل مصارع الأقوام، وتبدُّل العمران، وهلاك الإنسان ومن عمروا الأرض رافضين للوحي، غير قابلين لعروض الأنبياء، لقد تنوَّعت مصائرهم، إلى بلايا ومصائب أحيانا، وإلى توريث واستبدال أحيانا أخرى، وثالثة الأثافي تدمير وخراب وخواء وفناء، وسبحان من يرث الأرض ومن عليها، وإليه المرجع والمآب. ونجمل هاهنا تلك المآلات فيما يلي:

١. المآل الأول: التدمير، قال الله تعالى: ﴿**قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ [النحل: ٢٦]، وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [يونس: ٢٤]، وهو معنى الاستئصال والتدمير للعمران: ﴿**كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ**﴾.

٢. المآل الثاني: الخراب، فيصبح العمران خربا معطلا عن منفعته التي شُيِّدَ لأجلها، بحيث يهلك الله صانعي العمران، ويذر عمرانهم غير مستعمل من بعدهم. وهذا مصير عمران من استعجل عذاب الله، وأمن مكر الله، واستهزأ بآياته، ومثاله ما جرى لـ "عاد" الذين أرسل الله عليهم ريحا: ﴿**تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [الأحقاف:٢٥]، ومثاله أيضاً ما جرى لـ "ثمود"، كما قال الله تعالى: ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا**﴾ [النمل: ٥٢]، ومثل أقوام آخرين ممن طغوا في أرض الله، وقال فيهم الله: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ**﴾ [القصص: ٥٨].

٣. المآل الثالث: الاستبدال، يقول الله تعالى: ﴿**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾ [محمد: ٣٨]، على أن سنة الله لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، ﴿**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**﴾ [الفتح: ٢٣]؛ وقد جرت سنة الله أن لا يصير الذين ظلموا وعمرانهم إلى هذا المصير إلا بعد الإنذار، كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ**﴾ [الشعراء: ٢٠٨]، قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ [فاطر: ١٥-١٦].

٤. المآل الرابع: التوريث، وقد ضرب الله المثل بيهود المدينة لما خانوا العهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الأحزاب، فقال تعالى: ﴿**وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا. وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧]، وقال في مصير فرعون وجنده: ﴿**كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ**

كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨].

وبعد أن عرض الباحثون العمران القائم على الإيمان والعمران المبني على الطغيان، فإنهم يذكرون خلاصة هذين المسارين من خلال العلامات التالية:

الأولى: أن الإنسان محور التنمية والعمران وليس آلة صمَّاء، كما أوضح ذلك ابن الديبع الشيبانى (ت ٩٤٤هـ) في كتابه "بغية الإربة في معرفة أحكام الحسبة"، خلال حديثه عن منكرات الشوارع.

الثانية: أن توحيد الأفعال ينسجم مع توحيد المقال، وتوحيد المقال دليل توحيد الجنان متلازمة فطرية؛ فلا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه، فإذا كان ذلك في الأفراد، فما ظنك بالأمم والجماعات؟!

الثالثة: أن سلطة الإنسان على مواهب الحق فيه سلطة ابتلاء، وسلطة الأمم على مواهب الحق ونعمه سلطة جزاء، والإعراض مظهر الأمراض، وما ربك بظلام للعبيد.

الرابعة: أن ما ينزل بالناس من المصائب والابتلاءات إنما هو جرس إنذار وإعذار حتى يتنبه الغافل، ويستيقظ الوسنان، قال تعالى: ﴿**فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا**﴾ [الأنعام: ٤٣].

الخامسة: أن الله تعالى معطي الكمال، ومعطي الكمال لا يفقده، ولا يمكن أن يختلَّ الميزان ويبيد النظام، وأين إذن عناية الرحمن؟ قال سبحانه: ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ. وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ**﴾ [الرحمن: ٧-١٠].

السادسة: أن لكل حضارة أفولا، ولكل عمران خرابا، وتلك سنة الله في الإرادة والأمم، فلكلّ أُمّة أجل، كما أنّ لكلّ فرد أجلاً خاصاً، فللأُمم حياة وموت، يقول سبحانه: ﴿**لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [يونس: ٤٩]، وقد تكرر هذا المضمون في سور أُخرى كثيرة. وهذه الآيات توحي بأنّ مجموعة الظواهر الكونية كتب عليها البقاء إلى أجل مسمّى، فإذا جاء أجلها قضي على حياتها ووجودها.

الخاتمة

في خاتمة الورقة -نسأل الله تعالى حسن الخاتمة- يرى الباحثون أن تنمية وصيانة البيئة والعناية بها وعمارتها واجب شرعي، ومقصد أساسي من مقاصد الشريعة العليا (التوحيد، التزكية، العمران)، وأن الخطوات العملية لحل الأزمة البيئية في عالمنا يبدأ بما يلي:

١. التأكيد على أن التنمية والعمران فعل إنساني يحقق معنى الاستخلاف والائتمان، ومآله إلى الجزاء الرباني ثوابا أو عقابا، وهو ما بيَّنته مسارات التنمية والعمران في آيات القرآن على اختلاف مشاربها وأهدافها.
٢. ضرورة توعية الأجيال بقيمة التنمية والعمران، وأنهما فعل إنساني يهدف للعمارة والرقي، فهما من الإنسان وبالإنسان ومآلهما للإنسان، وفوق ذلك ثوابها من الرحمن في المعاش والمعاد.
٣. أهمية التدبر والتأمل في آي القرآن الكريم خاصة ما يتناول مسارات التنمية والعمران البشري لبناء واقع حضاري يناسب أمة الوسط.
٤. قيام الآلة الإعلامية بدورها في التوعية والتثقيف؛ كي يتحمَّل الناس مسؤوليتهم تجاه البيئة، ويدركوا خطورة ما يحيط بهم من مداهمات وربما كوارث إذا لم يغيّروا سلوكهم البيئي.
٥. وأخيرا، الاهتمام بالتربية البيئية في المؤسسات التعليمية (المدارس، المعاهد، الجامعات)، وتخصيص قاعة درس تتناول الهمَّ البيئي بالبيان والتناول الجاد.

التوصيات

في كل ما سبق يجد الباحثون أحكام العناية بأعيان البيئة مبثوثة في الكتب، مشروحة ومعلَّلة في العديد من المواضع، والذي نريده اليوم كتوصية من توصيات هذا البحث أن يتم تأهيل باحثين

متمرسين فيما يتعلَّق بهذه القضايا؛ ليصبحوا مرجعاً في الاجتهادات المتعلقة بالتنمية البيئية من خلال الرؤية الكونية المستمدة من القرآن الكريم، على نحو يعطيهم باعاً واسعاً وفهماً عملياً للمصلحة الشرعية المعتبرة بأقصر الطرق وأوضحها إلى الكتاب والسنة. هذا والله الموفق والهادي إلي أقوم سبيل.

المراجع

ʿAbd al-Fattāḥ, Sayf al-Dīn. (2006) Naḥwa Taf'īl al-Namūdhaj al-Maqāṣidī fī al-Majāl al-Siyāsī wa al-Ijtimā'ī. London: Markaz Dirāsāt al-Sharīʿah al-Islāmiyyah.

ʿAbd Al-Qādir, Muḥammad. (2008) al-Nafāyāt al-Khaṭīrah wa al-Ḍamīr al-Insānī. Majallah Al-Wa'y Al-Islāmī, No. 519.

Aḥmad, Fāḍil Ḥasan. (2000) Handasah Al-Bī'ah, Omar Al-Mokhtar University, Bayḍa, Al-Jamāhīriyyah Al-'Arabiyyah Al-Lībiyyah.

al-'Atīq, Fu'ād. (2006) al-Insān Wa Al-Bī'ah, Hal al-Ṭawfān Qādim. Dār Al-Nahḍah Al-'Arabiyyah, Beirut.

al-Būshīkhī, al-Shahid. (2013) Min al-Quran Ila al-Umran. http://almoslim.net/node/179860

al-Ghāmidī, ʿAbdullāh. (2009) Al-Tanmiyyah al-Mustadamah Bayna al-Haqq Fi Istighlāl al-Mawārid al-Tabīʿiyyah Wa al-Masʾūliyyah ʿAn Ḥimāyah al-Bīʾah. Jamiah al-Malik Abd al-Aziz.

al-Ḥaffār, Sa'īd Muḥammad. (1983) Ilm al-Sarṭān al-Bī'ī. Dār Al-Fikr, Damascus.

al-Ḥammādī, 'Abd al-Aẓīm Muḥammad. (2000) al-Manẓūmah al-Bī'iyah Wa Asālīb al-Taw'iyyah Bihā, al-Da'wah wa Al-I'lām wa Qaḍāyā Al-Bī'ah, Wizārah Al-Awqāf Al-Miṣriyyah.

al-Jiddī, ʿAwwād Jāsim. (1995) al-Amn Al-Bī'ī Min Manẓūr Islāmī. al-Wa'yu al-Islāmī, No. 350.

al-Qaḥtānī, 'Umar bin Muḥammad. (2008) Aḥkām Al-Bī'ah fī Al-Fiqh Al-Islāmī. Dār Ibn al-Jawzī.

al-Qurṭūbī, Abū 'Abd Allah, Muḥammad bin Aḥmad. (1985) al-Jāmi' li-Aḥkām al-Qur'ān. Dār Iḥyā' al-Turāth al-'Arabī.

al-Sahaybanī, Abdullah bin Umar. (2008) Ahkam al-Bīʾah Fī al-Fiqh al-Islāmī. Dar Ibn Jawzi, al-Damam.

Badrān, Ibrāhīm. (2000) Azimah al-Mujtama' al-Miṣrī Baina al-Talawwuth al-Bī'ī wa al-Talawwuth al-Fikrī, al-Da'wah wa al-I'lām wa Qaḍāyā Al-Bī'ah, Wizārah Al-Awqāf Al-Miṣriyyah.

Bushara, Zayid. (2013) Masārāt al-ʿUmrān Fī al-Qurān.http://www.hiramagazine.com/%D9%85%D8%B3%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D8%AA-

Dawwād, Barakāt Muḥammad. (2008) al-Tawāzun al-Bī'ī Darūrah Kawniyyah. Majallah al-Wa'y al-Islāmī, No. 519.

Ibn al-Daiba' al-Shaibānī, Wajīh al-Dīn, 'Abd al-Raḥman bin 'Alī. (2002) Bughyah al-Irbah Fī Ma'rifat Aḥkām al-Ḥisbah. Ed. Ṭalāl bin Jamīl al-Rifā'ī. Umm Al-Qurā University, Makkah.

Ibn al-Manẓūr al-Ifrīqī. (2003) Lisān al-Arab. Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah.

Ibn ʿĀshūr, Muḥammad al-Ṭāhir. (1984) al-Taḥrīr Wa al-Tanwīr.al-Dār al-Tunisiyah, Tunis.

Ibn ʿĀshūr, Muḥammad al-Ṭāhir. (2001) Maqāṣid al-Sharīʿah al-Islāmiyah. Ed. Muhammad al-Tahir al-Misawi. Dar al-Nafais, Amman.

Ibn Fāyi', 'Abd al-Raḥman bin Aḥmad. (2000) Ahkām al-Baḥr Fī al-Fiqh al-IslāmīDār Al-Andalus Al-Khaḍrā', Jeddah.

John W. Moore, Elizabeth A. Moore. (2001) al-Kimiyā' al-Bī'iyyah, Trans. Sābir al-Mismār. Omar Mokhtar University, Bayda.

Salāmah, Aḥmad 'Abd al-Karīm. (1998) Himāyah al-Bī'ah Fī al-Islām. Majallah al-Aḥmadiyyah, Dār al-Buḥūth Wa al-Dirāsāt al-Islāmiyyah, Dubai, No. 1.

Yusrī, ʿAbd al-Raḥmān. (2001) Dirāsāt Fī ʿIlm al-Iqtiṣād al-Islāmī. al-Dār al-Jāmiyyah.